

واقع التنشئة الأسرية بين تعدد المرجعيات والتحديات الراهنة

The State of Family Socialization Amidst Diverse Cultural References and Contemporary Challenges

زان رميساء*، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله
roumaissa.zane@univ-alger2.dz

ككوش ليلي، جامعة لونيبي علي البلدية 2
Kekoucheleile5@gmail.com

تاريخ القبول: 2025/11/12

تاريخ الاستلام: 2025/09/07

ملخص:

تركز الدراسة على الأسرة كأول مؤسسة يقع عليها تحقيق الأمن الاجتماعي لأفرادها باعتبارها أول ما يحتك به الفرد ولسنوات طويلة، إذ يتجاوز دورها في توفير ضروريات الحياة من مأكّل وملبس وشروط صحية وأمنية إلى دورها الأساسي المتمثل في التنشئة الاجتماعية التي تتخذ فيها مرجعية معينة أو مرجعيات متعددة لتأطير أبنائها وضبط سلوكياتهم وتوجيهها، وعلى هذا الأساس بحثنا في الأسس التي تقوم عليها التنشئة الأسرية، وفيما تتمثل مرجعياتها في ظل ما يعرفه العالم والعالم العربي على وجه التحديد من تحديات اقتصادية اجتماعية وخاصة ثقافية.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الكيفي لتحليل معطيات المقابلات التي تمت على عينة من الأسر اعتمادا على مقارنة بورديو في إعادة الإنتاج، والتي توصلت إلى ما يلي: أن واقع التنشئة الأسرية يعكس في الجزائر إرتجالية وعشوائية تتعدد

* المؤلف المراسل

مرجعياتها أو لعلها لا تخضع لأي مرجعية، اسفنجية قادرة على امتصاص كل المعطيات الجديدة بدون تمحيص أو فرز.

الكلمات المفتاحية: التنشئة الأسرية، التربية، المرجعيات التقليدية، المرجعيات الحديثة، القيم المزدوجة.

Abstract:

The study focuses on the family as the primary institution responsible for ensuring social security for its members, being the first environment, the individual interacts with for many years. Its role goes beyond providing the basic necessities of life—such as food, clothing, health, and safety conditions—to its essential role in socialization, whereby it adopts a specific reference or multiple references to guide, regulate, and direct the behavior of its children. On this basis, we examined the foundations upon which family socialization is built and the nature of its references, in light of the economic, social, and particularly cultural challenges facing the world in general, and the Arab world in particular.

The study adopts a qualitative methodology to analyze interview data collected from a sample of families, using Bourdieu's reproduction approach. The findings indicate that the reality of family socialization in Algeria reflects a state of randomness and improvisation, with multiple or even absent reference frameworks. It is described as "sponge-like," capable of absorbing all new inputs without scrutiny or filtering.

Keywords: Family Socialization, Education, Traditional References, Modern References, Value Duality. □

مقدمة:

يشهد العالم المعاصر تحولات جذرية غير مسبوقة في التاريخ الإنساني فرضتها الثورة التكنولوجية والرقمية والانفتاح الإعلامي العابر للحدود وتسارع حركة العولمة بما تحمله من تدفقات هائلة للأفكار والقيم والأنماط الثقافية، هذه التحولات التي أفرزتها العولمة لم تعد مقتصرة على مجالات الاقتصاد والسياسة، بل امتدت لتشمل الجوانب الاجتماعية والثقافية والرمزية مما جعل المجتمعات تواجه واقعاً معقداً تتداخل فيه المرجعيات المحلية مع المرجعيات الوافدة، وتتصارع فيه القيم التقليدية مع أنماط الحياة الحديثة.

وفي ظل هذا المشهد المتغير، لم تعد الأسرة - باعتبارها الخلية الأولى للمجتمع، والفضاء الأساس لتنشئة الأفراد - تشتغل ضمن إطار مغلق أو منظومة قيمية واحدة كما كان في السابق، فقد أصبحت بيئتها التربوية والاجتماعية مفتوحة على مؤثرات متعددة المصادر: من المدرسة والجامعة إلى وسائل الإعلام التقليدية والجديدة، مروراً بشبكات التواصل الاجتماعي والعلاقات العابرة للمجتمعات هذا التعدد في مصادر التأثير أنتج وضعاً معقداً تتقاطع فيه أنماط التنشئة التقليدية القائمة على المرجعيات الثقافية والدينية والاجتماعية الراسخة، مع أنماط تنشئة حديثة تستمد عناصرها من الفضاءات الرقمية والعالمية، ما يخلق تفاعلات تتراوح بين التكامل أحياناً، والتناقض والصراع أحياناً أخرى.

أما على المستوى الإقليمي، تواجه المجتمعات العربية - ومن ضمنها المجتمع الجزائري - تحديات مضاعفة تتمثل في محاولة التوفيق بين الحفاظ على الخصوصية الثقافية والهوياتية من جهة، ومواكبة التحولات العالمية ومتطلبات العصر من جهة أخرى، فالأسرة الجزائرية، بوصفها إحدى أهم مؤسسات التنشئة، تعيش اليوم وسط بيئة متغيرة تفرض عليها إعادة النظر في أساليبها التربوية وفي أدوارها التقليدية، نتيجة ما تواجهه من ضغوط اقتصادية، وتحولات في بنية الأدوار بين الجنسين، وتبدلات في أنماط الحياة الحضرية والريفية إضافة إلى تأثيرات الإعلام الجديد الذي لم يعد وسيطاً ناقلاً للمعلومة فحسب، بل فاعلاً مركزياً في تشكيل القيم والسلوكيات.

إن هذه التغيرات، بما تحملها من تعدد في المرجعيات وتنوع في المؤثرات تضع الأسرة أمام أسئلة ملحة تتعلق بكيفية ضبط مسار التنشئة الاجتماعية وتحديد أهدافها وأولوياتها في بيئة تتميز بالاستقرار القيمي وبالتأثير المتزامن لمصادر محلية وعالمية قد تتكامل أو تتناقض، ويزداد الأمر تعقيداً حين ندرك أن هذا الواقع الجديد لا يمنح الأسرة ترف الاختيار بين أن تكون تقليدية أو حديثة، بل يفرض عليها أن تتأرجح بين النموذجين معاً، في محاولة للتكيف والحفاظ على التماسك الداخلي، إنطلاقاً من هذه المعطيات، يطرح البحث التساؤل المحوري الآتي:

ما واقع ممارسة التنشئة الأسرية في المجتمع الجزائري في ظل تعدد المرجعيات والتحديات الراهنة؟

كيف تمارس الأسر الجزائرية اليوم عملية التنشئة الأسرية بين ما هو تقليدي وما هو حديث؟

فيما تتمثل أهم المرجعيات المؤثرة في التنشئة الأسرية الجزائرية، وكيف تتفاعل فيما بينها؟

في مفهوم التنشئة الأسرية:

التنشئة الأسرية مفهوم مركب يتضمن التنشئة الاجتماعية والأسرة، ولإحاطة بالمفهوم سنتطرق لكل منهما على حدة لنصل إلى المعنى الدقيق للمفهوم الذي تقوم عليه دراستنا:

1. الأسرة:

تعتبر الأسرة المؤسسة أو الجماعة الأولى التي يحتك بها الطفل أو الفرد بصفة عامة، لتشكيل لديه مجتمع مصغر تتكون وتنشأ فيها مبادئ وأسس العلاقات الاجتماعية تعتبر المصدر الأساسي لكل فعل أو سلوك يقوم به مستقبلا. (سعيد، 2024، صفحة 91)

فتشكل الاحتكاك الأول للفرد مع محيطه الخارجي والمجتمع الذي ولد فيه، يقع على أفرادها (الأسرة) تلقين هذا الفرد وتجهيزه للدخول إلى المجتمع وفقا لقيمه وعاداته وبنياته الاجتماعية بصفة عامة، لتشكيل بذلك إحدى مقومات الوجود الاجتماعية في المجتمع، لذلك تعتبر نظاما عالميا، ومن مظاهر عالميتها أن كل مجتمع يجيز الزواج بين الذكر والأنثى، مما يعطي الشرعية لميلاد الطفل ويتم هذا بطريقة معينة تختلف من مجتمع لآخر يحصل من خلالها الطفل على مركز معين وحقوق معينة، كما تقع المسؤولية لرعايته على كاهل أشخاص معينة عليهم أن ينهضوا بها. (الجوير، 2009، صفحة 25)

2. التنشئة الاجتماعية:

عرفها مصطفى الخشاب العملية التي يتم من خلالها التوفيق بين دوافع الفرد ورغبته الخاصة وبين مطالب واهتمامات الآخرين الممثلة في البناء الثقافي الذي يعيش فيه الفرد (الخشاب، 1981، صفحة 32) بحيث اعتبرها العملية التي يتم

من خلالها ادماج الفرد في المجتمع، فتنتقل من خلالها الثقافة من جيل الى آخر بكل ما تتضمنه من قيم وعادات وتقاليد وفن وأسلوب حياة وغيرها. فتعتبر التنشئة بذلك على "عملية اجتماعية منظمة يصبح من خلالها الفرد مندمجا في جماعة اجتماعية من خلال تعلم واكتساب ثقافتها ومعرفة دوره فيها" (عاطف، 1997، صفحة 271) (أحمد، 2003، صفحة 271) بحيث تهدف التنشئة الاجتماعية أساسا إلى تنمية الجانب الاجتماعي للذات من خلال إدخالها في الثقافة.

ويتجه بعض المختصين إلى اعتبار التنشئة الاجتماعية "عملية تطبيع اجتماعي"، بناء على أنها جهد تبذله الجماعة لتشكيل الفرد وصياغته في قالب معين، دون اغفال عملية التفاعل الاجتماعي كعملية تسيير في اتجاهين بحيث يؤثر كل منهما على الآخر، وبهذا تتخذ التنشئة الاجتماعية زوايا أكثر تعقيدا. تشير الكثير من الدراسات أنه رغم استمرارية التنشئة باستمرار حياة الفرد والمجتمعات، إلا أنها تزداد أهمية في مرحلتها الطفولة والمراهقة بناء على خصوصية المرحلتين وحساسيتهما، اللاتي غالبا ما ترتبطان بالمؤسسات والجماعات الأولية المتمثلة في الأسرة والمدرسة.

ومن هنا تأتي العلاقة بين المفهومين ليتشكل لدينا المفهوم التنشئة الأسرية: على أنها "استدماج لمعايير وقيم المجتمع، حيث تتحول تلك القيم والتقاليد والمعايير الى جزء من البناء النفسي للابن فيكون في استسلام للحصول على رضا وقبول الآخرين، في حين يعتقد البعض الآخر بأنه ينقاد طوعية إلى الثقافة السائدة ويتبنى قيم المجتمع ويحرص على تعلم اللغة والمفاهيم الاجتماعية التي تسهم في تعميق الشعور بالانتماء الذي يؤدي الى حصوله على قبولهم واعترافهم.

بين التنشئة والتربية:

تعد التربية من الأساسيات العلمية والاجتماعية والإنسانية المهمة في أي مجتمع متحضر، فهي وسيلة راقية لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد ما، والتي تتغذى بالإقناع الفكري الدائم، الثقة الإعتراز مدعمة بالدلائل العلمية. (أحمد، 2003، الصفحات 58-59)

وتتضمن هذه العملية الأفعال والتأثيرات المختلفة التي تهدف إلى نمو الفرد في جميع جوانب شخصيته، إذ تسيير به نحو الكمال عن طريق التكيف مع ما يحيط به مع ما يحتاج ذلك من أنماط السلوك والقدرات فالتربية عملية مقصودة تقوم على التوازن بين التلقين والضبط وفق أسس إجتماعية متفق عليها. (القنّامي، 2024، الصفحات 186-187)

في حين تركز التنشئة الاجتماعية مثلما أشرنا سابقا على ادماج الفرد في المجتمع من خلال انتقال الثقافة من جيل إلى آخر، وتشمل ما هو اجتماعي من لغة ورموز ودين وقيم وعادات ومهارات اجتماعية تمكنهم من العيش في مجتمعهم. وبذلك تظهر شمولية التنشئة الاجتماعية على عملية التربية، إذ تمثل الإطار العام الذي تحدث في إطاره مجموعة من العمليات الاجتماعية والثقافية التي تهدف إلى دمج الفرد في المجتمع وتكوين شخصيته وفقاً للمعايير والقيم السائدة، بينما تُعتبر التربية جزءاً من التنشئة، وهي عملية مقصودة ومنظمة تُمارسها مؤسسات معينة كالأسرة والمدرسة، وتهدف إلى تنمية الفرد معرفياً وأخلاقياً وسلوكياً وبذلك، فإن العلاقة بين المفهومين علاقة إحتواء وتكامل؛ فكل تربية هي شكل من أشكال التنشئة، لكن ليست كل تنشئة تربية، وتؤكد الأدبيات السوسيولوجية والتربوية أن فهم الديناميات الاجتماعية والثقافية لتكوين الفرد لا يمكن أن يتم بمعزل عن الربط المتكامل بين المفهومين، حيث تسهم التنشئة في التهيئة العامة لاندماج الفرد، في حين تُعزز التربية هذا الاندماج من خلال أهداف محددة ووسائل مدروسة.

فإذا كانت التنشئة الاجتماعية تركز على ثقافة المجتمع وقيمه ومبادئه فهل واقع هذه العملية يعكس ذلك المضمون أم أنه تجاوزته لمضامين مغايرة؟

إجراءات الدراسة:

1-المجال المكاني:

تمت الدراسة على بعض الأسر من أحياء الجزائر العاصمة، التي تتميز عن باقي الولايات الجزائرية باختلاف الانتماءات الاجتماعية لتشكّل مجالا مناسب للدراسة الميدانية وفقا لاحتياجات البحث، بحيث شملت في مجموعها سبع أسر تم التعامل فيها مع الاب والأم حسب مايلي:

2. المجال الزمني:

تمت الدراسة الإستطلاعية بهدف تحديد الموضوع ومن ثم ضبط متغيرات الدراسة وميدانها، من خلال الاحتكاك والتواصل من أسر وأولياء وذلك في شهرين أفريل وماي 2025، في حين تمت الدراسة الميدانية ما بين 15 - 26 جوان 2025، أين قمنا من خلالها إجراء عدة مقابلات مع 14 مبحوث ومبحوثة من الأولياء.

3. أدوات جمع المعطيات:

إعتمدت الدراسة على المقابلة كأداة لجمع المعطيات والتي تعتبر " تقنية تتم من خلالها عمليات الإتصال والتفاعل الإنساني، حيث تسمح للباحث بإستخراج معلومات وعناصر فكرية غنية ودقيقة". (فان، 1997، صفحة 229) وقد جاء إستعمالنا لتقنية المقابلة بهدف الإحتكاك المباشر مع المبحوثين الذي يمكننا بجمع أكبر قدر من المعلومات والكشف عن الحقائق حول واقع التنشئة الاجتماعية في الوقت الراهن وأهم مرجعياتها، وذلك من خلال مجموعة من الأسئلة تم طرحها عليهم بطريقة مباشرة ضمن محاور الدراسة التي تمثلت في: (البيانات الشخصية، أسس وأساليب التنشئة الاجتماعية من وجهة نظر المبحوثين مصادر ومرجعيات التنشئة الاجتماعية)، والتي تخللتها أسئلة ثانوية ضمن سياق التحوار والإجابات المتحصل عليها.

4. منهج الدراسة:

تماشيا وتقنية البحث المستعملة فقد تم الإعتماد على المنهج الكيفي في تحليل ومعالجة المعطيات والمعلومات المتحصل عليها عبر تقنية المقابلة، فالمنهج الكيفي بذلك هو "البحث الذي يركز على تحليل السيرورات الاجتماعية، والمعنى الذي يعطيه الأفراد والجماعات للفعل الاجتماعي وحياتهم اليومية وواقعهم المعاش" (Pierre, 1991, p. 6)

5. مجتمع الدراسة:

اعتمدنا في الدراسة على مقابلة تسع أسر تمت مقابلة كل من الأب والأم، بمجموع 18 مبحوث ومبحوثة وهذا من الأسباب التي جعلتنا نقصد جملة من الاسر التي تتوافق مع أهداف الدراسة وخصوصيتها حيث تم التعامل مع سبع أبناء، وسبع أمهات إضافة الى تسع منهم من تتراوح أعمارهم بين 30-40 سنة و

45 سنة فما فوق، بهدف المقارنة بين اجاباتهم والوصول إلى نتائج أعمق مثلما سنوضحه فيما يلي من حيثيات الدراسة:

الخصائص الديمغرافية لمجتمع الدراسة:

المبحوث	الجنس	السن	المستوى التعليمي	المستوى الاقتصادي	عدد الأولاد	تدرس الأولاد
1	أنثى	34	جامعي	جيد	2	نعم
2	ذكر	38	تقني سامي	جيد	2	نعم
3	أنثى	40	بكالوريا	معتدل	5	نعم
4	ذكر	47	ثانوي	متوسط	5	نعم
5	أنثى	42	جامعي	متوسط	2	نعم
6	ذكر	45	بكالوريا	متوسط	2	نعم
7	أنثى	39	جامعي	جيد	4	نعم
8	ذكر	43	جامعي	جيد	4	نعم
9	أنثى	30	جامعي	معتدل	1	لا
10	ذكر	33	جامعي	معتدل	1	لا
11	أنثى	34	جامعي	متوسط	2	نعم
12	ذكر	39	ثانوي	متوسط	2	نعم
13	أنثى	48	ثانوي	متوسط	3	نعم
14	ذكر	53	متوسط	متوسط	3	نعم

تحليل نتائج البحث الميداني:

أساليب التنشئة الأسرية المعتمدة عند الأولياء بين الوعي والتقليد:

تعتمد التنشئة الأسرية على جملة من الأساليب سواء بوعي من ممارسيها أو دون دراية منهم، سواء بقصد أو بدون قصد، فالتنشئة تقوم على طرق ووسائل محددة، متداخلة في أحيان أخرى تلخص فيما يلي:

تقوم التنشئة الأسرية على "تصورات وأفكار وممارسات محددة تظهر على شكل أساليب أو معاملات يتبعها الآباء في تعاملهم مع أبنائهم والمواقف التي يتعرضون لها" (وآخرون، 2016، صفحة 130)، ويتخذون في ذلك مرجعية محددة أو يتعددون في مناهجهم، ليصلوا إلى إحدى التصنيفات الثلاث التالية أو يدمجون بينها في أحيان كثيرة:

تصنف أساليب التنشئة الأسرية:

وتصنف أساليب التنشئة الأسرية بذلك كما تم توضيحه إلى ثلاث تصنيفات وهي:

الأسلوب السلطوي: وينتهج فيه الأولياء السلطة والصرامة في التعامل مع أبنائهم، والمواقف التي تواجههم وأبنائهم، حيث يركز هذا الأسلوب على وضع الحدود وتحديد القواعد وتقديم الإرشاد، إذ يمكن إعتباره أسلوبا حادا وغالبا ما يعتمد على العنف بشتى طرقه: الصمت العقابي، الضرب، الكلام الجارح... إلخ، وغالبا ما تعتمد الأسر التقليدية أو ما يسمى في الوقت الراهن بالأسر المغلقة. الأسلوب التفاعلي: وهو الأسلوب الحواري التشاركي، والانفتاح على آراء الأبناء، إذ يقوم على التعاطف مع الأبناء وتوجيه سلوكياتهم بمرونة تجنباً للصراع والحدة، حيث يحاول من خلاله الأولياء الارتقاء بأبنائهم في كل مرحلة إلى بر الأمان قدر الإمكان، كما يعتمد على الحوار والتواصل الدائم والإرشاد والتوجيه، ويكثر هذا الأسلوب عند الأسر الحديثة أو الأسر المفتوحة حاليا.

الأسلوب الإهمالي: يمكن القول أنه من أسوء الأساليب، الذي يشمل عدم الاهتمام برعاية الأبناء ليبدأ التأطير الذاتي مبكرا عندهم، ويظهر هذا الاتجاه بشكل أكبر في حالات انفصال الأولياء عن بعضهم رسميا أو عاطفيا، حيث يرمي كل منهما بالمسؤولية على الطرف الآخر، ويمكن القول أن هذا الأسلوب منتشر عند الأسر المنفصلة فعليا أو شكليا.

وتلخص هذه الأساليب الثلاث جملة الممارسات التي يعتمدها الأولياء في تنشئة أبنائهم، وترتبط هذه الأخيرة بتنشئتهم الاجتماعية وتدرج ضمن ما يسميه بورديو بآليات إعادة الإنتاج أي أن الفاعل الاجتماعي الذي يعيد إنتاج ما تطبع عليه "الهأيتوس"، حيث تبقى الممارسة رهنا لما عمل عليه الفاعل من رأسمال ثقافي.

ووفقا لجملة المقابلات التي قمنا بها توصلت الدراسة إلى أن معظم الأولياء يعتمدون على العنف كأسلوب في تعاملهم مع أبنائهم، وهذا مع تعدد أسبابهم، إذ أرجع البعض منهم ذلك إلى تكرار نفس الخطأ من طرف الأبناء، أو التراجع في الدراسة وغيرها من الأسباب وهذا فيما يتعلق بالضرب كسلوك يتبعونه، في حين يعتبر الأولياء الأشكال الأخرى ضروريات في تربيتهم أو تنشئتهم، وأولها الصمت العقابي ضمن أسلوب التنشئة الاجتماعية السلطوي، في المقابل صرح

أغلبهم أنهم يعتمدون الحوار والموعظة التي يعتمدها الآباء في الحياة اليومية بعيدا عن الأخطاء التي يرتكبها أبنائهم، وهذا ما يعكس الدمج بين الأسلوب السلطوي والأسلوب التفاعلي وذلك وفقا للمعطيات التي يتعاملون معها، حيث يكشف هذا على عدم الاتساق وعدم وجود أسلوب واضح، إذ يتجه الأمر إلى إمكانية ممارسة أسلوب في موقف وأسلوب آخر في موقف مماثل، وهذا ما يعكس الفجوة بين ما نعتقده وما نمارسه (سعيدة، 2024، صفحة 147) حيث تتحكم بذلك مجموعة من العوامل في هذه الأساليب، بحيث يمكن التعرف أو توقع الأسلوب الذي تمتثله الأسرة من خلال تحديد هذه العوامل وفقا لـ:

المستوى الاجتماعي: إذ تتحكم الخلفيات الاجتماعية التي تنتمي إليها الأسرة في نوعية الأسلوب، بحيث تحمل كل بيئة أو طبقة اجتماعية ثقافة معينة خاصة بها تتمثل في القيم والمعتقدات وأنماط السلوك التي تمثل الإطار المرجعي القاعدي لأي ممارسة والدية، حيث كلما كان المستوى الاجتماعي أعلى والذي يرتبط مباشرة بالمكانة الاجتماعية كلما اتجهت الأسرة نحو الأسلوب التفاعلي والعكس صحيح.

المستوى الإقتصادي: ويتعلق بالدخل المادي وممتلكات الأسرة، بحيث الأسرة التي تضمن الحاجيات المادية لأبنائها تضمن في ذات السياق تنشئة سليمة لهم والعكس صحيح، ويؤثر المستوى الاقتصادي على جودة الحياة والفرص التي تتيحها لأبنائهم، فكلما كان المستوى الاقتصادي أحسن كلما اتجهت الأسرة نحو أسلوب الانفتاح والتفاعلية، والعكس كذلك حيث تتجه الأسرة إلى الأسلوب السلطوي لمدارات رغبات واحتياجات الأبناء التي لا تستطيع التحكم فيها.

المستوى الثقافي: حيث يرتبط بدوره بمستوى الإستهلاك الثقافي وطرق التفكير الذي ينعكس على تنمية الوعي الثقافي لدى الافراد (ليلى، 2016، صفحة 82) ويقصد بالاستهلاك الثقافي كل ما يتعلق باللغات والاهتمام بالفنون والمسرح والاطلاع على التراث المطالعة والبحث والتطلع لكل ما هو جديد، إذ توسع هذه الخصائص دائرة التنشئة الاجتماعية وكمية المعلومات والموارد التي تقدم إلى الأبناء، بحيث يساهم المستوى الثقافي في تحسين طبيعة التنشئة الاجتماعية خاصة اذا ارتبطت بوعي الاولياء، من حيث محاولة الاهتمام بما يهتم به الأبناء والدراية

الكاملة بما يحيط بهم مما يساهم في القدرة على التحكم وإدارة سلوكيات أبنائهم والعكس في حالة الانغلاق الثقافي.

من خلال ما تم التطرق إليه تظهر العلاقة بين الخلفية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للأسرة والأسلوب الذي تنتهجه في تنشئة أبنائها، وبشكل واضح فإن الانطباع العام للأسرة ينعكس على طبيعة السلوك لدى أبنائهم" (سليمان، 2015، صفحة 171)

وقد توصلت الدراسة بذلك إلى أن المستويات التي سبق الإشارة لها لا تؤثر على اعتماد الأولياء أسلوبا معيناً دون الآخر، حيث صرح الباحثون باختلاف مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية حتى الثقافية أنهم يعتمدون الأسلوب السلطوي تارة والتفاعلي أحيانا أخرى، كما يدمجون بينهما في مختلف المواقف، ما يعني أن الأسلوب إنما يرتبط بخلفية تاريخية ثقافية نشأ عليها بنموذج جمعي تعرفوا عليه وألفوا المشي عليه، وهذا إن دل على شيء يدل على أن ما يتحكم في أسلوب التنشئة الأسرية مرتبط بالثقافة المجتمعية المرتبط بدورهم بعادات وتقاليد وأعراف ومجموعة من القيم حتى وإن كانت مغلوطة، بينما تأثر المستويات على درجة اعتماد أسلوب واتجاه الأسرة نحو الإنفتاح، مثلما أشار لها رشيد حمدوش في دراسة أجراها على الشباب وأسره أن المجتمع الجزائري يتجه إلى انتشار الأسر البينية التي تقع بين الأسر المغلقة والمنفتحة، دون نفي وجود كلاهما وإذا حاولنا التفصيل في خصوصية هذه النتيجة، نجد أن الأسر البينية تعتمد على الاطار المجتمعي من جهة والإنفتاح على العالم من جهة أخرى، وهذا ما يوضح الخلط الواضح في الأساليب التي تعتمد عليها الأسر في تنشئة الأبناء وعدم إستقرارها على نموذج ثابت ومرجعية محددة، وعليه آلية إعادة الإنتاج تتسم بالتذبذب بين الهاييتوس وما يكتسبه الفرد من رساميل، إلا أن بورديو قد ربط إكتساب الرساميل المرتبط بالحقل واللعب بأهداف معينة، وما يظهر لنا من خلال الدراسة أن التنشئة عند الأسر إرتجالية وعشوائية تتعدد مرجعياتها أو لعلها لا تخضع لأي مرجعية، إسفنجية قادرة على امتصاص كل المعطيات الجديدة بدون تمحيص أو فرز، وللتحقق من ذلك واصلنا مجريات المقابلات مع الباحثين حول مرجعياتهم ومصادرهم في تربية أبنائهم.

مصادر التنشئة الاجتماعية بين المرجعيات التقليدية والحديثة واللامرجعية:

يرتكز أي فعل اجتماعي سواء كان مقصودا بوعي أو غير مقصود على خلفية يتخذ من خلالها الفرد القرار أو يقدم من خلالها على هذا السلوك، وهذا ما يعرف في الساحة السوسيولوجية بالتطبيع الاجتماعي الذي يعكس ما نشأ عليه الفرد، فقرارات الفرد تأتي بالضرورة قياسا على تجارب سابقة حتى وان كانت المواقف التي يواجهها غير مسبقة، فإن العقل يقاربها لما شابهها من تجارب أو معلومات نشأ عليها ليتخذ طريقة في التعامل معها، دون أن ننفي دور البحث والاستفسار وأخذ النصيحة أو التوجيه من طرف الآخرين والتي لخصها بورديو في الهايتوس الذي يملكه الفاعل الاجتماعي والذي يتفاعل به ومن خلاله مع محيطه الاجتماعي، ثم يطوره من خلال إكتساب الرأسمال الثقافي الذي يميز الحقل الذي ينشط فيه الفاعل والذي يصل من خلاله لإعادة إنتاج مواقف اجتماعية مختلفة ضمن سيرورة الحياة الاجتماعية على مختلف الأصعدة، في وقت معين الذي اعتمد فيه الفاعل الاجتماعي على خلفية واضحة المعالم، تبعا لمرجعية ثابتة تقريبا لدى مختلف فئات المجتمع، التي تتلخص فيما يلي: (Ruizl, 2019, pp. 53-67))

المرجعيات التقليدية:

وهي المصادر الكلاسيكية التي كانت تُشكل الوعي والسلوك الاجتماعي للأفراد خاصة في المجتمعات التقليدية أو على الأقل الأسر المحافظة وتتميز بالثبات والسلطة الرمزية، وهذا على النحو التالي:

1. الأسرة الممتدة: أول وأهم مصدر للتنشئة، كانت تلعب دورا محوريا في ذلك عبر إشراف جماعي الأب، الأم، الجد، الجدة، والأقارب، حيث يتم فيها نقل القيم والعادات والتقاليد التي تحدد من خلالها سلوكيات الافراد المنتمين لها، كما تمارس سلطة قوية في توجيه السلوك، وتعتمد غالباً على العقاب والمكافأة.
2. المؤسسة الدينية: وتعد مرجعية أساسية في بناء الضمير الأخلاقي، وتحديد ما هو مقبول أو مرفوض، إذ يتجاوز هذا الطرح دور المؤسسة الدينية كعقيدة إلى نظام اجتماعي كامل موجه للعلاقات الاجتماعية وضابط لها، حيث كانت هي الأخرى مصدرا للمؤسسات الأخرى.

3. القبيلة أو الجماعة المحلية: وهي خاصة بالمجتمعات الريفية أو التقليدية، حيث كانت الجماعة أو القبيلة تحكم بقوة العرف والسمعة، كما يربى الفرد على ضوئها بالالتزام بشرف العائلة والقبيلة، كما تستخدم آليات اجتماعية غير رسمية للضبط أهمها السلطة الرمزية التي تركز على القبول الاجتماعي، إضافة إلى الاحتفالات والمناسبات الدينية والطقوس التي تلعب دورا هاما في تكوين الانتماء وتحقيق الاعتراف الاجتماعي.

4. المدرسة التقليدية: من خلال واقع المدرسة كونها لم تكن مستقلة عن السلطة الدينية والاجتماعية وحتى السياسية يكمن دورها في تنمية روح الانضباط الجمعيين وذلك من خلال موازنة برامجها مع القيم الاجتماعية والأخلاقية المتعارف والمتفق عليها.

5. وسائل الإعلام التقليدية: كالإذاعة والتلفزيون الرسمي التي تنقل رسائل موحدة تتماشى مع القيم السائدة، إذ تستخدم كأداة للضبط الاجتماعي وبث القيم الرسمية المرغوبة.

ويشكل مما سبق بذلك أهم المرجعيات التي اتخذ منها الفرد أساسا لسلوكاته وممارساته الاجتماعية إلا أن الواقع الاجتماعي في ظل التغيرات الاجتماعية التي شهدتها العالم خاصة في ظل تكنولوجيا الاعلام والاتصال الحديثة، ومظاهر العولمة التي شملت مختلف الأصعدة خاصة الثقافية، أدت إلى تراجع تلك المرجعيات أو على الأقل إختلاف مضامينها عكس الاتحاد الذي كانت تعرفه، وبالتالي ظهرت مؤسسات أخرى اتخذها الافراد مرجعية أو مرجعيات لهم في مختلف السلوكات بقصد أو بدون قصد والت سنصطلح عليها بـ:

المرجعيات الحديثة:

وقد نشأت هذه الأخيرة في ظل التحول إلى المجتمع الصناعي والحداثي، حيث بدأت المرجعيات تُبنى على أسس عقلانية وعلمية والتي تظهر فيما يلي:

1. الأسرة النووية: والتي تمثل شكل الأسرة الحديثة المستقلة عن الأسرة الكبرى، والمتحررة من قيود الاسرة الممتدة، حيث تتخذ هي الأخرى

سلمها الخاص في تبني وبناء قيم ومعايير اجتماعية خاصة بها، بحيث قد تعتمد على ما نشأت عليه من الأسرة والمنظومة التربوية، إلا أنها تتجاوزها في الانفتاح على المؤسسات الأخرى خاصة الإعلام ومضامين الرقمنة المعاصرة.

2. المنظومة التربوية: لم تعد فقط مكانا لتلقين المعرفة، بل تُشجع التفكير النقدي، وتُعزز الفردانية الذي يسمح للفرد بتعدد مصادره في إتخاذ القرارات وممارسة مختلف السلوكيات.

3. وسائل الإعلام الحديثة: الإعلام المعاصر أو مثلما يشاع تسميته بالإعلام التفاعلي، اللاتزامني الرقمي أو الافتراضي... وغيرها من التسميات التي تدل على إنفتاح الشاشات على العالم وبالتالي تداخل ثقافات وقيمها وإتجاهها نحو ثقافة عالمية تسود فيها شأننا أم أبينا ثقافة الأقوى.

ويتضح لنا من خلال هذه المؤسسات وغيرها اتجاه الافراد في مختلف الجماعات رسمية كانت أو غير رسمية نحو التعدد في مرجعياتها، وهذا ما دفعنا للتساؤل حول واقع هذه الخلفيات عند الأسر الجزائرية وفيما تتمثل المصادر التي يتخذها الأفراد لتقييم أو تعديل ممارساتهم؟

وقد توصلت الدراسة الميدانية التي أجريناها على جملة من الأسر إلى أن: أغلبية المبحوثين قد صرحوا على أنهم يعتمدون التقاليد والأعراف الاجتماعية كمرجعية ومصدر أساسي في تنشئتهم لأبنائهم، في حين أشاروا بالموازاة مع ذلك تحديدًا الأمهات إلى إتباع نصائح الخبراء والمختصين، في حين صرّح الآباء بإتباعهم تجاربهم الشخصية، إذ يعتبر الآباء أنهم يملكون المؤهلات التي تمكنهم من تربية أبنائهم بالطريقة التي يجدونها مناسبة دون الحاجة إلى توجيه، حيث صرّح في ذات السياق أحد المبحوثين بعبارة " هذا الراس شاب وشاف وعاف ما يسحقش لي يوريلوا" في حين يقول آخر " باش تربى لازم تكون مربى وانا مربى الحمد لله " وهذا ما أن دل على شيء إنما يدل على ضعف الوعي بأهمية هذا المشروع وجدية المسؤولية التي تقع على الأولياء والآباء تحديدًا، ويمكننا ببساطة تفسير هذا بالخصوصية السوسيوثقافية والتاريخية للمجتمع الجزائري التي تعكس الفجوة العميقة

مع إزدواجية وفقدان القيم والعيش العشوائي عبر مختلف المقاييس* في حين صرح أغلب المبحوثين في سياق آخر بلجوئهم إلى الأهل والأصدقاء في حال تعرضهم لمواقف جديدة مع أبنائهم، مؤكدين على أن ذلك بدافع الفضفضة والاستفادة العامة من تجارب الآخرين وفي النهاية لا أحد يؤثر في قراراتهم. كما لاحظنا من خلال الدراسة تشابه الإجابات عند الآباء وهذا على اختلاف أعمارهم، إلا أن التفاوت يظهر لدى الأمهات كما يظهر إهتمامهن بالتقصي والبحث، خاصة عند الأمهات الحديثات إن جاز لنا التعبير، إلا أن هذا التقصي ما يزال عشوائيا وبدون هدف وتعتريه بعض الشكوك في مصداقية مرجعياته، حيث صرحت المبحوثات أنهن يكتفين بموازنة ما يتعرضون له من مضامين تربوية بقصد أو بدون قصد مع قيمهم ومبادئهم دون التأكد من صاحب المحتوى، كما يدل على أن الإهتمام هذا يصب ضمن التنشئة الاجتماعية غير المقصودة عند الأمهات، ذلك أنهم يتعرضون له بمحض المصادفة في كثير من الأحيان حسب تصريحاتهن، ومرة أخرى إنما يدل هذا أو يعكس على عدم الجدية في التعامل مع هذا الموضوع.

من خلال ما سبق يتضح أن الأسر في الجزائر تتخذ تارة المرجعيات التقليدية بأساليبها السلطوية، وتارة المرجعيات الحديثة بما فيها من إنفتاح وتفاعلية، وهذا ما يعكس تناقض وعدم إتران في الأساليب التنشأوية المتبعة عند الأسر، مما يعكس تشتت قيمي وفقدان واضحا للمعايير، ما يحيلنا إلى القول أن التنشئة الأسرية في المجتمع تتسم باللامرجعية أي الفراغ المرجعي والذي نقصد به الحالة التي تتسم بتراجع المرجعيات التقليدية مثلما أطلق عليها رشيد حمدوش بإسترخاء المؤسسات التنشأوية (حمدوش، 2009، صفحة 183) وغياب أو ضعف المرجعيات الموجودة، في ظل مجتمع الهويات (غيدنز، 2005، صفحة 86) وتضارب المصادر واتجاه الأفراد نحو الفردانية، التي تجعل الأفراد يتخذون ذاتهم مرجعية دون ضوابط اجتماعية واضحة، كما يمكننا تفسير هذا من منظور بورديو الذي اعتبر الأسرة فضاء مركزيا لإعادة إنتاج البنى الاجتماعية والثقافية عبر ما يسميه

* للمزيد اطلع على جمال مفرج، أزمة القيم، من مأزق الاخلاقيات إلى جمالية الوجود، منشورات الاختلاف الجزائر،

ضوابط إعادة الإنتاج، وهي الآليات التي تضمن انتقال رأس المال الثقافي والرمزي من جيل إلى آخر، بما يحافظ على إستمرارية النظام الاجتماعي أي أن عملية إعادة الإنتاج عند بورديو تقوم على الإنسجام، إلا أن الدراسة توصلت إلى تراجع التجانس المرجعي بين رأس المال الثقافي للأسرة والقيم السائدة في المجتمع نتيجة تعدد المرجعيات، مما جعل الأسرة عاجزة عن إعادة إنتاج منظومة قيمية موحدة، وأنتج جيلا متذبذب الهوية. (بوبكر، 2017، الصفحات 100-103)

خاتمة:

تشهد التنشئة الأسرية اليوم أزمة حقيقية تتجلى في اضطراب المرجعيات وتعدد المؤثرات التي تحيط بالفرد والجماعة على حد سواء، وهي مؤثرات كثيراً ما تتناقض أو تتعارض فيما بينها، فتضع الأسرة في حالة من التذبذب واللااستقرار القيمي والتربوي، حيث أصبحت الأسر المعاصرة بذلك تتأرجح بين نمطين من التنشئة: التنشئة التقليدية التي تقوم على مرجعيات ثقافية ودينية واجتماعية ثابتة نسبياً المتمثلة في العائلة والأعراف المتوارثة اجتماعياً التي تضمن تشابهاً أو اتفاقاً لديهم في المبادئ التشاؤمية، أما التنشئة الحديثة فتستمد أسسها من قيم العولمة، والانفتاح الإعلامي، والتحول التكنولوجي دون أن تكون هذه القيم بالضرورة متجذرة أو منسجمة مع البنية الاجتماعية المحلية، أسس هذا الانفتاح إلى تعدد في المصادر والمرجعيات التي يعود لها الأفراد في تنشئة أبنائهم.

والنتيجة أن الأسرة لم تعد قادرة على الالتزام الصارم بأي من النموذجين فلا هي حديثة بالمعنى المؤسّس على معايير واضحة وأطر محددة، ولا هي تقليدية بركائز متينة ومرجعيات ثابتة، ونتيجة هذه العبثية، عبثية بالضرورة بالتنشئة في جوهرها عملية بناء الذي يستلزم خطوات منهجية وأهدافاً محددة، بينما ما نشهده اليوم داخل كثير من الأسر هو تجريب عشوائي وخضوع لتأثيرات خارجية آنية.

حتى حينما تطرح أهداف تربوية أو قيم محددة، فإنها غالباً ما تكون عرضة للتغيير السريع، إما تحت ضغط المحيط الاجتماعي، أو استجابة لتيارات الموضة الفكرية والسلوكية، أو بسبب هيمنة مبدأ "إذا عمّت خفت" أي أن الانحراف عن القيم أو القواعد يصبح مقبولا نسبياً إذا كان شائعاً بين الأفراد وهو السياق

الذي تتعرض منه وظيفة الأسرة الأساسية -المتتمثلة في تربية الأبناء وتشكيل شخصياتهم - إلى تهديد مباشر، حيث تحل الفوضى القيمية محل الانسجام القيمي، والإرتجال محل التخطيط، والمسيرة السطحية للمحيط محل الرؤية البعيدة المدى.

وعليه فإن ما يحتاجه المجتمع اليوم لا يقتصر على الوعي بوجود أزمة في التنشئة الأسرية، بل يستدعي إعادة النظر في الأسس التي يبنى عليها الزواج وتكوين الأسرة وإعادة الاعتبار لموظيفتها التربوية، من خلال العمل على تأهيل الأولياء عبر برامج تربوية مدروسة تزودهم بالمهارات اللازمة للتعامل مع تحديات العصر التكنولوجي والإعلامي مع احترام الخصوصيات الثقافية والدينية، كما يتطلب الأمر دمج مسألة التربية الأسرية في السياسات العمومية حتى لا تبقى مسؤولية فردية معزولة، بل تتحول إلى مشروع اجتماعي متكامل تشترك فيه المؤسسات التربوية والدينية والإعلامية لتوفير بيئة مساعدة على التنشئة السليمة. ومن المهم أيضا السعي إلى بناء نموذج تربوي متوازن يوفق بين إيجابيات التنشئة التقليدية، بما تحمله من قيم الانتماء والضبط الاجتماعي، ومكتسبات التنشئة الحديثة التي تعزز الاستقلالية والانفتاح، مع ضرورة الارتقاء بالثقافة الرقمية لدى الأسر لتتحول التكنولوجيا من مصدر تهديد إلى أداة للتربية الواعية من خلال الحرص على البحث في مصادر ما يتلقونه وتمحيصه قبل التأثر بمضامينه، تفعيل دور الاختصاصي الاجتماعي والنفساني في مختلف المؤسسات الاجتماعية وتوعية الاسر بضرورة اللجوء له في مختلف المواقف التشاؤمية، والحقيقة أن التعامل مع هذه الازمة على امتداد جذورها التاريخية تحتاج مجهودات جذرية تتشارك فيها مختلف الانساق أولها الاسرة في حد ذاتها.



قائمة المراجع:

- إبراهيم بن مبارك الجوير. (2009). *الأسرة والمجتمع دراسات في علم الاجتماع العائلي*. دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع.
- أنطوني غيدنز. (2005). *علم الاجتماع (من مدخلات عربية)*. (فايز الصياغ، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية مترجمة.
- بوخريسة بويكر. (2017). *سوسيولوجيا بيير بورديو، تحليل في النظرية والمفاهيم والمنهج*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- جوفلكيت ليلي. (2016). *التنشئة الاجتماعية وآليات تشكيل العنف عند المراهق*. مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، 07، 82.
- حسين حسن سليمان. (2015). *السلوك الإنساني والبيئة الاجتماعية بين النظرية والتطبيق*. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- رشيد حمدوش. (2009). *الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة امتدادية أم قطعية؟ دراسة ميدانية: مدينة الجزائر نموذجا توضيحيا*. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- ريمون كوفي وكمينهود لوك فان. (1997). *دليل الباحث في العلوم الاجتماعية* (الإصدار 1). لبنان: المكتبة العصرية.
- سعد عبد الرحمن وآخرون. (2016). *سيكولوجية البيئة الأسرة والحياة*. مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع.
- سلطان بن ريجان القناني. (ديسمبر 2024). *العلاقة التكاملية بين التربية والعمليات الاجتماعية*. *المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، 63، 186-187.
- صغير بيرم سعيدة. (2024). *التنشئة التقليدية والتنشئة الحديثة بين الحاضر وتطلعات المستقبل*. *مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية*، 2(14)، 147.
- عيشة محمد أحمد. (جانفي 2003). *نظرة عامة حول التربية والتنشئة الاجتماعية بالقوة*. *المجلة الإفروآسيوية للبحث العلمي*، 1(1).
- غيث عاطف. (1997). *قاموس علم الاجتماع*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- فيس سعيد. (2024). *التربية والتنشئة بين المفهوم والدلالة*. *المجلة الجزائرية للسياسة والأمن*.
- مصطفى الخشاب. (1981). *دراسات علم الاجتماع العائلي*. بيروت: دار النهضة العربية.
- Robecca Laff Wendy Ruizl. (2019). *Community: Socialization and Support, Child, Family, School*. paris.
- Deslauriers Jean Pierre. (1991). *Recherche qualitative, guide pratique*. Montreal : Mc Graw-Hill.